أحلام الفجر زئبقي أهوائه

قصة بقلم نبيل مهايني

« ان نكون راديكاليين يعني ان نفهم الشيء في جذره ، لكن جذر الانسان هـو الانسان نفسـه »

كارل ماركس

استيقظت عند الفجر عندما كانت الحياة تمـلأ السوق المجاورة . واذ تأكدت ان وقت نهوضي لم يحن بعد ألقيت برأسي على الوسادة من جديد رافعا فخذي الى صدري ومحيطا بذراعي وجهي ، ذلك لابدل مـن الوضع الذي ادى الى استيقاظي ولاحجب النور المتسرب مـن النافذة عني . لم يكن من السهل ان اعاود النوم من جديد . ففضلا عن الصخب في الخارج ، والذي يصل اليّ همسا، كان رأسي يضج بأصوات سحيقة تحاول نزع ذكريات مختلطة بذكريات احلام كان مـن العسير ايقاظها . بدلت من وضعي مرة اخرى متقلبا في فراشي . وبين بوارق الافكـار والذكريات ونداءات الاحلام وصخب السوق ، غرقت في النوم من جديد. او هكذا خيل لي . ذلك اني عندما اطبقت جفني للمرة الاخيرة متأكـدا اني سأستسلم الى النوم تحت وطأة النعاس الذي بدأ يدب فـي اطرافي ويستولي علي ، برزت ندى امامي بقميص نومها المثير ، ذلك الـــذي احببت دائما ان ترتديه وان يحليها ، اذ كـان يهبها ، وهـو الاخضر المشتعل الرقيق ، جوهر اسمها . فالندى لا بـد وان يملـك القلب ويستولي على الاعصاب ، مفعما اياها بالنضارة والطلاقة ، عند مشاهدة لون بشرتها الرائع عبر خضرة القماش الشفاف ، كما في دعايات افضل انواع الصابون التي اشاهدها بكثرة هذه الايام حيثما جبت في هـذه المدينة . ومن العبث الكلام ــ حتى امام نفسي ساعتها ــ عـن نعاس او نوم او ما شابه ذلك . فقد استحلت كلي حضورا منفصلا عن اي ماض قريب او بعيد ، عن اي ذكرى او حلم او فكرة او حتى شعور ، منفصل عن اي مستقبل قريب او بعيد ، عن اي وهم او امل او خاطرة او حتى احساس ، حضور متجه بكليته وبكمال صدق وجوده اليها . وقد يبـدو رومانتيكيا جدا ان اقول ان هذا كان نتيجة لشغفي بها ، وفي الواقـع كانت كلماتها ــ فضلا عن ولعي بها بالطبع ، هذا دون ايـة رومانتيكية ما ــ هي التي نزعتني عن نفسي . ولا ادري لماذا قلت عـن « نفسي » ، فهذا خاطىء دون شك .

ــ امستغرق انت في النوم ، حبيبي ؟

ــ ليست هذه ساعة النهوض ، حبيبتي .

وهنا اجد ان من واجبي ان اقول بأن استعمال تعبيـري حبيبي وحبيبتي عادة متبعة في مدينتي هذه . لكن بما ان الامـر يتعلق بندى وبعلاقة هواي بها ، فان الامر كان يتطلب لفظا خاصا من قبلي (فهـي تجهل هذه الملاحظات ذات الطابع الادبي ، وان كانت تتصرف بصورة تدل على انها تتقنها فطريا) على الكلمة ، وربما كيما اعطيها معنى يختلف عن المعنى الجاري الذي تحمله ، او ، على الاقل ، وقعا صادقا يعيد لهـا معناها المفقود ، في مسامعي ، على الاقل .

ــ انها الخامسة ، حبيبي !

ــ آه ، وتريدين نهوضي عند الخامسة ، حبيبتي ؟

ــ اما تسمع صخب الحياة وراء النافذة ، حبيبي ؟

ــ لا اسمع شيئا يا حبيبتي . كلي شغف ، حبيبتي . انت الحياة ، حبيبتي .

ــ انـا يـا حبيبي ؟

كان جوابها مفعما ببراءة مستحيلة . الا ان تلك البراءة التـي ارتسمت في عينيها ثابتتي الحدقتين وعلى اطراف شفتيها بسمة فجرية، حركت فيّ نشوة الهوى الجميلة . وبينما كانت حنجرتي ترتفع وريقـي يهبط في بلعومي ، اذ ضغطت على اضراسي الخلفية ، كـان جفنـاي يهتزان وبريق نور غريب يمر في عيني ، وميل تلقائي في صدري يشدني نحوها وهو ينحل في انفعالات رهيفة تصعب تسميتها بـل يستحيل تحديدها لان كلا منها يصب في اخر بسرعة لا يمكن ايقافها حتى للفحص والتأمل . ولم تكن عينا ندى بحاجة لرد فعلي كيما تشتعلا بتلك الرغبة المستسلمة . كما اني لم اكن بحاجة لرد فعلها كيما اقفز مـن فراشي دافعا اغطيتي الثقيلة ومندفعا نحوها (وقد كانت عنـد اسفل السرير) ــ وكأن قوة سحرية قد تجمعت في نهايات اطرافي ــ لاعانقها . لكـن ما ان اصبحت بين ذراعي واصبحت بين ذراعيها حتى توزعت تلك القوة السحرية في انحاء اطرافي وجسدي مالئة اياه بحيوية رزينة هادئـة . اطبقت شفتي على شفتيها وغبنا في قبلة تخيلت آنئذ اني لم اعهـد مثيلها من قبل . وعندما كنا ننحدر الى السرير ، كنت انضو عنها ثوبها الشفاف بينما كنت احاول باليد الاخرى ــ او هكذا اتذكر ــ خلـع الفضلة التي كنت ارتديها .

وقد يكون من العسير عليّ تذكر كافة التفاصيل التـي صاحبت حبي لها . ففضلا عن ان كل مرة تختلف عن الاخرى جوهريا في تلـك التفاصيل ، فان ذاكرتي ــ لشروط سأستعرضها ــ تعجز الآن عن تخيل الامر من جديد ، لكن اقول حالا باني لا اتذكر ما اتذكـر الآن بواسطة معجزة حدثت دون ان ادري كنهها . ومما اذكره الآن جيـدا ان تلـك التجربة كانت ــ كما تخيلت آنئذ ــ اجمل تجربـة حب خبرتها فـي

حياتي ، بل انه خيل لي انها اجمل تجربة حب على الاطلاق ، وانهـــا مطلق الحب واني وصلت الى ذروة النضج التي لن انحدر منها بعـــد ابدا . ووصل بي الامر ان فكرت بأنني استحق هذا نظرا لمثابرتي واملي المتواصل العنيد في الوصول لتلك المرحلة .

* * *

وما ان ابعدت اصابعي التي بدأت اغرزها بعنف زائد فـــي لحمها البض ، وما ان تحركنا عن بعضنا وهمدت حواسنا المتعطشة وتنفس كل منا كما لو بعد كابوس مخيف ، حتى تأكدت ان ما حدث لـــم يكن الا ذكرى ليلة حبي الاخيرة مع ندى وقد عشتها بكل دقائقها كما لو كانت حقيقة واقعة وانا ضائع بين حالة اليقظة وحالة النوم . الا ان انتباهي هذا لم يغير من امر نشوتي شيئا ، بل انه تلاشى كما اني . وهكـــذا غبت في نوم لذيذ رقيق غمرني كموجة بلورية وضيعني من جديد عـــن اي ماض وعن اي مستقبل . وبينما كانت انفاسي تعاود وقعها المعتـاد لتصبح غير مسموعة ، غير محسوسة ، كنت انا انتقل شيئا فشيئا من حالة النوم الرقيق الى النوم .

واستطيع ان اقول انه ، عدا لحظات كانت تنبهني فيها آلام ظهري (المعتادة اثناء كل ليلة ، والتي لم يستطع أي طبيب حتى الآن ان يخمن سببها ، بينما اخمن انا كل يوم سببا لها ، ومن الطبيعي ان تكون بارقة التخمين في تلك البرهة تتعلق بالارهاق الجسدي بعـد تجربـة الحب تلك) فاستفيق ، او عن عن لحظات اخرى كنت انتبه فيها لكوني اسمع صخب الحياة في السوق ـ والذي بدأ يتعالى ـ اقول عدا تلك اللحظات العابرة ، كنت انعم بنوم هادىء جميل . ومما زاد في جماله اني لـــم اشعر به على الاطلاق . وقد يبدو هذا شيئا بديهيا ، بيد انـي سمعت عن حالات يمكن فيها للنائم ان يكون على وعي تام بانه نائم . وقد حدث بالفعل ان خبرت هذا بعدها مرات عديدة بنفسي . الا انها كانت تجربة مرة ، ومرارتها كانت تزداد كلما ازدادت درجة وعيي لكوني نائما . ومـع اني اود ان لا يتكرر هذا ابدا ، كما ارى انه بدأ يحدث بالفعل ، فانـي اشعر الآن بحنين عميق لتلك التجربة الغريبة ، وربما كان هـــذا بسبب حنيني لكل تجربة صدق . واستطيع ان ازيد بان ذلك النوم كان هكذا جميلا الى درجة اني بدأت برؤية احلام غريبة لم اعهد صلتها وتتابعها البتة . فبينما كانت الام تضع وليدها ، وبينما بدأ صراخ الوليد يتعالى، رأيته طفلا يحبو ثم يجري قرب ضفاف بردى (وهو نهر أظنه قـد جف الآن ، اذكر اني رأيته مرة عند زيارتي لمدينة غريبة تدعى دمشق يقال انها من اقدم مدن التاريخ ، هذا الى جانب اشياء غريبة كثيرة سمعتها عنها) ويذهب ليغسل وجهه بمياهه حيث قيل له بان يتعمد . وبينما كـــان ذلك المخلوق يمسح عن وجهه آثار الدماء الحارة التـــي كانت تكـــوي بشرته ، سمعت ثغاءه وهو حمل صغير يجري في حقول مخضرة بينمـا كانت الشمس تشرق بعظمة تثير النفوس في سدرة الافق البعيد . ولم يكن مني الا ان اخذت احثه على الثغاء والجري نحـــو قرص الشمس ، وكأن صوته المهتز البريء قد ولد في ذكرى طفولـة احـن الـى براءة صفائها .

وتقلبت مرة اخرى في فراشي محاولا ابعاد هذه الاحلام وقد بدأت رغبة اليقظة تعاودني من جديد وتتحرك ، واهنة ، بعيدا في اعماقي . الا ان النعاس ، على ما يبدو ، كان قويا بصورة ـ لو انه كان رجلا ـ لما التفت حتى الى تلك الرغبة . وهكذا بدأت احلام اخرى تشغلني عـــن ادراكي لوضع نومي وعن رغبتي السقيمة فـــي الاستيقاظ . وبـــدأت فقاعات هواء غريبة تعبر مياه النهر الراكدة وتتصاعد ، بينما كانت جثة مجهولة تهوي الى القاع . وتأكدت ، ببارقة خاطفة مرت فـــي خيالي الحالم ، بأن الجثة هي جثة الطفل والجمل . الا انها الآن كبش في يـد ابراهيم عليه السلام . وبدأت ابتهل الى اللـــه ان يخلص اسماعيل . وعندما ظهر الملاك ـ تماما كما في الاحاديث الدينية ـ ومعـــه كبش الفداء ، انفجر في كل الاركان دوي مدافع عديدة وحلقت طائرات كانـت تلقي قنابل ، قالوا انها نابالم ، على قرية كلها من حجر اسود . ورأيت عشرات من البيوت وقد تهدمت . كما اني عندما جبت بيـن الانقاض ، بعد همود المعركة ، رأيت جثث صبايا واطفال وجنود وعجائز وابقـــار وبضع سيارات ودراجات محترقة .

وتحركت في من جديد رغبة اليقظة ، الا انها ، مرة اخرى ، كانت رغبة بعيدة غارقة في ظلام ذاتي السحيق . وهكذا تابعت نومي . واذكر بعدها (وقد حان الوقت لان اقول بأن الطبيب اخبرني بـــان ذاكرتـي مشلولة ، حتى عن الاحلام ، وهذا وضع تحققت منه بالفعل . لكنـــي ، كما قلت ، اجد نفسي الآن لاول مرة ، امام ظاهـــرة غريبة ، تساعدني وتمنعني عن الذكرى) اني رأيت طيف ندى يمر امامي ، الا اني ظننت بأني احلم . ومن الواضح ان رغبة النوم هي التي ولدت فـــي خاطري تلك الفكرة . اذ ان ندى اخبرتني في اليوم التالي بأنهـا ـ عنـد عودتها من رحلتها صباح ذلك اليوم ـ قد أتت جنبي بالفعل وانه كان بها رغبة صامدة في مجامعتي ، وانها قد استلقت بالفعل معي في السرير . بـل اني اذكر بأنها هزتني هزا عنيفا ، واني عاودت ترديد قولي بأني احلم . لكن ، وعلى حين غرة ، راودتني فكرة مناقضة وغريبة وهي ، رغم انـي نائم ، الا اني لا احلم . وهكذا صدقت بوجود ندى الفعلي . ولـم تترك لي عيناها المشتعلتان بالرغبة اية فرصة للتفكيـــر ، فحضنتها ورحت اقبلها بوحشية وبنهم عارمين . الا ان تلك الوحشية وذلك النهم سرعان ما تلاشيا ، وشعرت بخور لم اعهد له مثيلا . فتركت ذراعـي ينحدران من على رقبتها الى صدرها الى خصرها ، ثم تركتها ورحت اتأملها بنظرة كسيرة وضيعة وكأني اطلب الرحمة . ويبدو انها ظنت ، كما تخيلت ، باني بت الليلة مع غيرها وان هذا تفسير ضعفي ، فنظرتني بازدراء زاد من ارتباكي وهواني . تململت على نفسي ضاما فخذي الـــى صدري ومتكئا بذقني على ركبتي وانا احدق في الفراغ . ثم انقلبت على جنبي محتفظا بوضعي وغطيت وجهي بذراعي محاولا ان ابكي . الا اني لـــم افلح . كان كل شيء قد تجمد في اعماقي ، حتى الحزن الا ان الشعـر ـ او كما خيل لي انه يسمى انئذ ـ لا يفارقنا ، للاسف ، في اية لحظة من لحظات حياتنا . وهكذا سمعت صوتا غريبا يصرخ وكأنما ليواسيني « يا كلمة الله في مريم كوني » . ثم صوتا اخر خبيثا يجيب متسائلا « هل تكون » ؟.

وبينما كانت اصداء السؤال والجواب تتلاشى ، كنت اتقلب فـي سريري من جديد . وتمتمت ، وكأني اخذت بالجو الشاعري « كنت يوما جناحا ، صقرا سأكون » . ورأيت الجثة المجهولة تهوي من جديد فـــي اعماق النهر البليدة بينما كانت فقاعات الهواء تقرقر صاعدة .

وكما اخبرتني ندى فيما بعد ، فانها قد حاولت ايقاظي مرة اخرى بعد تلك المحاولة ، وقد اطلقها تأخري بالنوم . اذ انه لا شيء كان يشير الى اني في سبيلي للنهوض .. او حتى للاستيقاظ. بينما كانت الحياة في الخارج قد اخذت مجراها اليومي ، وبدأ الصخب يتعالى ، والساعة تشير للتاسعة .

احسست بهزة عنيفة . وعندما استيقظت رأيت ندى رائعة امـام عيني . كانت ترتدي ثيابها مستعدة للخروج . لكن الامر الغريب كـــان اني لم اسألها متى عادت من رحلتها ، كما انه لم يبد عليها انهـا فـــي سبيلها لتقديم أي تفسير . كل ما فعلته هو اني نهضت ، وكأني اريـد ان افعل في دقائق قليلة ما كان علي تنفيذه في وقت طويل . كان على ان اكون مع الفرقة التلفزيونية في تمام السابعة والنصف ، حيث كان علي البدء في التصوير حال ظهور الشمس فوق سطح بنـــاء المشهد . لكنها كانت التاسعة ولم يكن بالامكان الوصول هنـاك قبـل العاشرة . وبدأت في توبيخ ندى ، الا انها اعتذرت بأنها كانت تجهل هذا الموعـــد الغريب اليوم ، وزادت بأنها نزعت الهاتف حال وصولها ، كي لا يزعجني احد في يوم العطلة هذا .

ـ عطلــة ؟

وزاد حنقي . لبست ثيابي كيفما اتفق ، وحاولت الوصول الــى مكان العمل في اقل سرعة ممكنة .

عندما ظهرت امام الآخرين بدأوا ينظرون الــيّ شزرا . وحاولت تصليح الامر بتصوير منظر آخر ، على ان نصور الاول في اليوم التالي .

الا ان مشاكل غير متوقعة كانت تظهر باستمرار ، وتعقدت الامــور بشكل لا يحتمل بعد . شعرت باعصابي تتمــزق ، فتركت الجميع . « الى الشيطان » . وذهبت الى غرفة مجاورة واستلقيت علــى فراش الديكور . كان وثيرا بالفعل . أردت النوم فلــم استطع . حاولت ان اتوه في تخيلات واوهام ، فلم استطع . حاولت التفكير فـــي مشهد الشمس صباح اليوم التالي ، فلم استطع . كما لم استطع التفكير في اي مشروع للمستقبل . كنت اصطدم دائما بوضعي العصبي المتدهور . في النهاية حاولت احياء ذكرى ليلة حبي الاخيرة مع ندى ، تلك التــي عشت ذكراها صباح اليوم المشؤوم . « حبيبتي ندى » . الا ان كلمات الطبيب بدأت ترن في اذني قوية هادرة . لن استطيع التذكر . ذاكرتي مشلولة حتى عن الاحلام ، كما هي مشلولة عن الآمال . كل مــا يمكنني ان افعله هو ترديد ذكريات احسبها ذكريــاتي واجتــرار آمــال احسبها آمالي . لكنني عندها كنت عاجزا حتى عن هذا . استلقيت علــى بطني وحاولت توليد الذكرى ميكانيكيا : فراش الاسفنج الوثير هو نــدى ، الوسادة صدرها ، عانقت السرير ... لكن صورتها ؟ وهكذا فــان العزم كان خيطا نحيلا بعيدا غارقا في الظلمات . لم انجح في احياء اية قوة لشبق تلك الليلة . كان شبقي تجريديا غريبا ابله . لم تكن بي قوة حتى على الحراك . كل ما يسمى قوة أو عزما كان يلوح لي كذكرى بعيـــدة لا تنال رغم عسير الجهود ، كنقيق ضفدع وليد فـي واحة بعيـــدة جفت مياهها (والآن اذكر ان هذه الصورة تشبه صورة لشاعر عربي قديم ، هذا بينما كان الركود يستولي على اطرافي ، على جذعي ، بل حتى على جفنيّ ، لم اتمكن حتى من تحريكهما . وهكذا كانت جهودي في احضار صورة ندى في خيالي محاولات عابثة . لم انجح حتى في تصور بسمتها، عينيها ، نهديها ، لون شعرها ، ثوبها الاخضر الحبيب ، شبقها ، حبها. آه ما اعسر ان يعجز المرء حتى عن الذكرى ، عن الذكرى عندما تكـــون ملامح وجه حبيب ، دفين في الخيال العنيد ، هي أمل الخلاص الوحيد. « لو تحضر صورتها ، قد يثور عزمي » . لكن الصورة لا تحضر اذا فقد العزم ، وتذكرت بيت شعر قديم « صح مني العزم والدهر ابى » . آه يبدو ان عزمي هو مجرد عزم ادبي ، او انه عزم اخرق يخلقه نبض القلب او توتر عصب وتخونه الدماء والاعصاب المعنية والاطراف .

وحاولت مع كرامة رجولتي . حاولت تذكر نظرات نــدى المزدرية المليئة احتقارا . « عليّ الآن .. » . كان كل ذلك عبثا . لم افلح حتى في تذكر نظراتها المزدرية ، والتي لم اكن ادرى ـ لا استحالة الذكرى ـ اين وكيف ومتى رمتني بها . « لكن ما هي تلك النظرات » ؟. « من اين جاءتني فكرتها » ؟. « انا حلمت ذلك ؟ » . « يجوز » . « لا يمكن » . تركت السرير بصعوبة بالغة لاتكىء على باب الغرفة انظــر الآخريــن منهمكين في ترتيب الامور للغد ، مستعدين للانصراف كل الــى حيانه . « وأنــا » ؟.

ولبرهة قصيرة لم استطع التأكد من وجودي الحقيقي . خيل اليّ اني ما زلت نائما في سريري وبأني احلم . فركت بأطــراف اصبعين مآقي عينيّ ، وعدت الى حيث وضعت محفظتي . اخذتها وعدت ادراجي في سبيلي الى البيت .

في الشارع بينما كنت اسير مهلا مهلا ، كانت الحياة حياة بالنسبة للاخرين ، والضجيج ضجيجا بالنسبــة للاخريـن ، والشمس شمسا بالنسبة للاخرين . انا كنت كالسائر في احلامه ، ينظر ولا يرى ، ينصت ولا يسمع ، يظن انه يحيا بينما هو يحلم الحياة بينما الحياة تجــري حوله بكل عنف واقعيتها .

كانت تعوزني ابتسامة هزء خفيفة ترتسم على شفتي .. عندها مــن يدري ؟.. قد استطيع تجاوز ما انا فيه ، رغم ، بل بسبب وعيي له .

ولم ينزعني عن تلك الافكار الخرقاء الا زعيق سيارة تقف بعنف . كنت أسير في عرض الشارع دون ان ادري .

تابعت سيري ....

نبيــل مهاينــي

علي محمود طه

قصائد

اختارها وقدّم لها
صلاح عبد الصبور

عن دار الاداب

٢٥٠ ق ل — صدر حديثا